

الخيال عند حدود العوالم المادية والمشاهد الحسية، فكيف يتسنى له مع هذا الضعف والوقوف عند مدارك الحواس، أن يصل بإدراكه الذاتي إلى معرفة شئون الإله الحق، الذي احتجب عن الحواس بحجاب العظمة والجلال، وتعالته ذاته العلية عن الإحاطة والإدراك، وتنزهت صفاته القدسية عن المشابهة والمماثلة.

ومما يؤيد هذا الذي قررناه تأييداً واضحاً، أن المتقدمين من كبار الفلاسفة وشيوخهم، وهم من صفوة أرباب العقول المفكرة، والبصائر النيرة، والأحاسيس المرهفة، وقفوا في مباحث الالهيات حيارى في منتصف الطريق، وتشعبت عليهم مسالك البحث والنظر، وتخطبوا في هذه المباحث التي أفنوا فيها أعمارهم، ولم يستطيعوا بكل ما وضعوا من قوانين النظر والاستدلال، أن يصلوا إلى الحقائق الخالصة من شوائب التضليل والتلبس، وجاءوا بعد طول المطاف بخليط من الوثنية والتوحيد، ومزيج من المذاهب الفلسفية التي لا تغني من الحق شيئاً، وكان أوضحهم في ذلك محجة، وأصحهم رأياً، وصدقهم حديثاً، من كان منهم على صلة بشرائع الانبياء والرسول، فقد كانت صلتهم بالشرائع السماوية تضيء على عقولهم قبساً من صحة النظر، واستقامة التفكير.

وأما بالنظر إلى معرفة الغاية التي خلق لها، والحقوق والواجبات المترتبة عليها، والإلمام بأحوال الآخرة التي يرجع إليها، فلأن العقل لا يستطيع أن يستقل بفهم ما يجب أن يفهم من شئون الدار الآخرة وأحوالها، وما يتصل بها من الأقوال والأعمال التي ربطت بها السعادة أو الشقاوة فيها، لأن ذلك فوق مستوى إدراكه الذاتي، وتفكيره الاستقلالي، وإنما يعرف ذلك كله عن طريق الوحي الالهي، وإرسال الرسول، وتشريع الشرائع، ولهذا ربطت مسؤولية التكليف والمؤاخذه بإرسال الرسول وتبليغ الشرائع، لا بمجرد بلوغ الرشد واكتمال العقل، كما قال تعالى في سورة الإسراء: " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " .

فهذا الأصل كما ترى، يقضي بحاجة الإنسان في كل زمان ومكان، إلى هداية سماوية ترفع عن عقله غواشي الوهم والخيال، وتكشف له عن الحقائق المتعلقة